

تقديم

الطبعة الأولى

ما أعجب لعب الحوادث بنا ، وتوجيهها إيانا ؟ فلو أن هذا الكتاب نشر من عام مضى لنشر باسم غير اسمه ، ولنظمت مواده غير نظامها الحاضر . فإلى عام مضى كان عزمي أن أجعل عنوانه « خلال أوربا » ، وأن أرتب مواده على أنه كتاب سياحة ، وأن أجعل إهداءه إلى زوجي أن كان من أجلها اجتيازنا أوربا شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً . ولم يكن عنوان « ولدى » ليدور يومئذ بخاطري أو لتجرؤ أن تخطه يدي ، أن كانت كلمة « ولدى » جديرة بأن تثير في نفسي وفي نفوس أحب الناس إلى آلم الذكرى وأفجع الأثر . لكن رحمة الله بنا وعطف القدر علينا وما عوضنا عما احتسبنا، خفف من لوعة هذه الذكرى الأليمة التي يثير خيال وروذها إلى النفس عبرات من مآق يعز على أن تنهل منها دمعة ألم واحدة . واليوم وإن بقيت في القلب ندوبه فإن الثغر ليفتر عن ابتسامة لهذه الطفلة التي رزقنا والتي نرجوها ما يرجوه أير الآباء لأحب البنين ، ونرجوها في الحياة متاعاً حرمانه مدى سنوات أربع كنا نعد النظر نحو صيف كل واحدة منها بصبر ذاهب لنقر من بلاد الذكرى المحزونة آملين في فسحة بلاد الله عنها عوضاً . وهيات أن تعوض بلاد الله جميعاً نفساً كليمة ، وقلباً كبيراً ، وفؤاداً يتنزي ألماً ، إلا ما في تنوع مظاهرها واختلاف الليل والنهار فيها مما يصرف القلب إلى الجديد الذي يقع عليه ، فينسيه من حر لوعته ، ويسكن من نيران جراحه .

فقد ولد لي « ممدوح » في ٦ من يونيو سنة ١٩١٩ بالقاهرة في بيت جده لأمه . وكانت جدته لأمه في السادسة والثلاثين من عمرها ، ولم يبق القدر لها من خلف غير زوجي وأختها . وكانت هذه الجدة الشابة يسيل وجودها كله رقة وتكاد الأمومة تنسيها كل ما سواها من العواطف . وكانت مريضة بالسكر . فلما أنجبت ابنتها ولداً جهدت في العناية بالطفل وأمه . وبالغت في الجهد حتى انهدت كل قواها ، فمرضت واشتد بها المرض فلم تستطع مداومة العناية بالطفل وبابنتها التي كانت في فراش الميلاد ما تزال . وكانت ابنتها الصغرى لما تبلغ الثانية عشرة من عمرها ، وكانت تتردد على المدرسة ، فلم يكن يقع عليها - وهي في سنها

وفى تلمذتها - أن تقوم بخدمة أمها . واضطرت ابنها التى كانت موضع جهدها ورعايتها أن تترك فراشها لتقوم فى خدمة هذه الأم المريضة فى الليل وفى النهار أياماً طويلاً أعلن الطبيب بعدها أنها فى خطر . وأجريت لها عملية جراحية أسلمت روحها بعد يومين من إجرائها ، وغادرت هذه الحياة صباح ٣ من يوليو سنة ١٩١٩ ، أى بعد مولد ممدوح بسبعة وعشرين يوماً .

وحزنت زوجى لفقد أمها حزن جنون أنساها حالها ، وأنساها ابنها ، وأنساها صحتها . وعبثاً حاولت فى الأيام الأولى أن أرد إليها شيئاً من صوابها . ولئن نسيت فلن أنسى قولها إنها كانت تتمنى لو أن الولد هو الذى مات ؛ فنحن شابان ما نزال . والابن يعوض لكن الأم لا تعوض . ولعل فرط الحزن الذى أنطقها بهذه الكلمة غشى على بصرها فلم تر فى حجب الغيب ما يمكنه القدر لها ، ثم لابنها . وأسلمت للحزن نفسها ، وجعلت من واجبها المقدس زيارة قبر أمها وسيلة لمضاعفة أساها وحزنها . وأشهد أن المصاب كان جديراً بكل هذا الأسى . لكننا فى الحياة ألعيب يعبث بها القدر . ولئن بلغنا على الحياة ما بلغنا من جاه ومكانة ، ولئن امتلأت نفوسنا بما امتلأت به من عاطفة وفضيلة ، لا يفوتنا أنا من القدر هاته الألعيب ، وأن عبث القدر بها بعض حقه ، وأنا إذا أردنا أن نسمو على الحياة فنحقد إلى القدر وجهاً لوجه فلن يكون ذلك بالسخط منه والحقده عليه ، ولكن بالإذعان له ، والتسليم بحقه ، والرضا بكل ما يصيبنا من جانبه . على أن أفدح ما تصيبنا به الحياة غير جدير أن يترك من الأثر فى نفوسنا إلا ما يذره أعظم ما يسرنا . وكما أن السعى والعمل أكبر مسرة فى الحياة تزيدنا رضا على رضانا وغبطة على غبطتنا بكل خير نناله ، فالسعى والعمل هما كذلك أكبر عزاء فى أفدح شجن وأجل كارثة .

وتوالت الفصول والسنون وهدأت فى النفوس لوعة الحزن . لكن القدر الذى حرم زوجى أمها أبى لها « ممدوحاً » وحيداً يرجوها فى براءة طفولته أن يجعل له أخاً وأختاً ، فتكتفى هى عن الحرمان بحمد الله على جوده به علينا ، وبالرجاء الحار أن يبقيه لنا . وكنت أشاركها من أعماق قلبى فى هذا الدعاء ، أن كان الولد قرة عين لنا ، وأن دفع تتابع السنين إلى نفوسنا أنه كل ما قدر لنا من خلف . وإنا لنرى الأسبوع الأول من شهر ديسمبر سنة ١٩٢٥ إذا الولد يمرض مرضاً لم يلق الطبيب إليه أول الأمر بالاً ، ثم إذا به يعلن بعد ثلاثة أيام أن الممرض حى الدفترى . فى تلك اللحظة اخترقت بصيرة الأمومة حجاب الغيب ، وانهدت الأم باكية تنتحب كأنما رأت الموت رأى العين يمد يده إلى صغيرها يتخطفه منها . ثم تنبعت إلى

واجبها نحوه فأسرعت ترعاه وتعرضه ، وعالج الطبيب المرض أياماً خيل إلينا فيها أن كل خطر زال ، وأن دموع الأم التي انسكبت على قسوة القدر ألانت منه فرد اليد الغادرة الممتدة في جناح الظلام . وفي مساء السبت ١٢ من ديسمبر ذهبت إلى عملي وأنا أشد طمأنينة من كل يوم سبقه منذ مرض الطفل . فلما عدت عند منتصف الليل رأيت الأنوار في مسكني والباب مفتوحاً ، فدخلت فقابلتني زوجي بهذه الكلمة : « ممدوح مات ! » . تسرى الرجفة إلى بدني ويقشعر الآن جسمي لكتابة هاتين الكلمتين وقد مضى على سماعي إياهما خمس سنوات وأشهر . نطقت زوجي بهذه العبارة الفاجعة في صمت الليل الخوون ، فأسرعت لأرى أين هو ، ودخلت إلى غرفة النوم فإذا أمي جالسة إلى جانب السرير والطفل الذي أورثنا الشكل على ركبتيها ومن حولها أختاي ، اختار الله إحداهما إلى جواره في ٢ من أغسطس سنة ١٩٣٠ ، وثلاثتهن واجمات كسيرات القلب ينظرن في حسرة ملتناعة إلى هاته الأم الشابة التي فقدت وحيدها وهي ذاهلة لما تقدر مدى هذا المصاب الكارث ، وتركتهن بعد أن قبلت جبين ولدى وانتقلت إلى غرفة أخرى وقد هوى الحزن بقلبي إلى قرار سحيق . وانتقل ممدوح في عصر اليوم التالي من بيت أبيه إلى فلاة الصحراء ليرقد إلى جانب جدته الشابة في جوار الله . وعدت بعد ما ودعته هذا الوداع الأخير ولا شيء أخشاه أكثر من ساعة ألتقي مرة أخرى بزوجي وقد تغيرت حياتنا وقد انطفأ سراجها ونخم عليها الظلام .

والتقينا في الصباح ، فإذا ذهنها في شغل بمسائل كثيرة يحاول أن يظفر لكل منها بجواب ، وإذا هي لما يتركز الحزن في قرارة نفسها بمثل ما تركز بعد ذلك بأيام قلائل . وكانت كبرى المسائل التي تشغلها وتكاد تستأثر بتفكيرها ، مبلغ ما علينا ، هي وأنا ، من تبعه في هذا الحادث ، وهل كان محالاً علينا أن نتغلب على القدر وأن ندفع الموت عن فلذة كبدا ؟ وفي سبيل الجواب على هذه المسألة جعلت تحلل التفاصيل وما فعلنا وما كان يجب علينا أن نفعل ، وكيف عاملنا طفلنا أثناء مرضه ، وهل قسونا في كلمة صدرت منا إليه . وعلى أساس هذا البحث جعلت ترتب أحكاماً كالأحكام التي يترتبها الناس عادة - والسيدات بنوع خاص - على ما يؤديه غيرهم لهم من المجاملات وما يترتب عليهم من دين لهذا الغير مقابل مجاملاته . وأدى هذا البحث بزوجي إلى تقدير فداحة ما أصابنا ، وما ربما كان في مقدورنا دفعه ، إلى نتائج خففتها وارتعت لها . ولست أدري ما كان يؤول إليه الأمر لو أن شقيقتي لم تكونا يومئذ إلى جانبها ، ولم تقفا كل جهدهما على محاولة صرفها عن

فاجع الأسى الذى أَلقت بحياتها بين يديه ، وكأنما كانت تستطيب عذابه وتجد اللذة فى المزيد من مرارته .

أما أنا فأذعنت لحكم القضاء وأسلمت أمرى لله ، إليه مصير الأمور ، وواجهت الزمن ألتمس فيه ما على من واجب أؤديه . وكان أكبر واجبي يومئذ أن أعمل لعزاء زوجتى فهو لى أكبر عزاء . وهل كان يزعجنى أكثر من أن أرى إنساناً ارتبطت بحياته حياتى منذ عقدنا شركة نلتمس بها زينة للحياة تنسينا متاعها ، بل تجعل هذه المتاعب لذة ونعياً ، فإذا زينة حياتنا تحطمت فى لحظة ووقف اليأس البشع بشبحة المخيف يصدم شبابها الجدير بالأمل وينذر بهجذب الحياة وأن لم يبق لزينة فيها رجاء ! ولولا هذا الواجب الذى كنت أراه ملموساً محسوساً أمامى كل يوم مرات ، لهوّن على القضاء من فجيعتى . فقد رأيت يومئذ أن لا عزاء فى الحياة عن مصاب كمصابنا تتحطم له العزائم وتنشق منه المرائر خير من العمل يلقي الإنسان بنفسه فى أحضانه ويضاعفه ما استطاع إلى مضاعفته سبيلاً . لذلك عدت إلى مكتبى فى اليوم الثالث ، وأسلمت نفسى لمشاغل الصحافة الكثيرة المشاغل ، وجعلت كل همى أن أنسى فى العمل نفسى وأن ألقى إليه كل بالى وكل تفكيرى . والعمل خير بلسم لجراح الحياة بما يستغرق من انتباهنا ، فيشغلنا عن جراحاتنا ويترك للزمان تضميدها فى أناة ورفق . لكننى كنت لا ألبث حين أعود إلى بيتى أن أرى وأسمع ما يحرك ألى . فجعلت ألتمس فى بعدنا عن موضع الفجيعة سبباً للعزاء . وخيل إلى أنى نجحت فيما حاولت من سفرنا إلى السودان لنشهد افتتاح خزان سنار . غير أنى علمت عشية السفر بأن لا سبيل إلى مصاحبة زوجى إياى . وبعد تردد فى السفر دونها رأت هى ضرورة سفرى حتى تتفرغ هى لما كنا شرعنا فيه من البحث عن مسكن آخر لا تحدثنا جدرانته ولا يحدثنا نظامه ، ولا تحدثنا كل صغيرة وكبيرة فيه ، بما يحرك القلب ويهيج الشجن .

وعدت من السودان فألقيتها أتمت بحثها ، وتبدأ يوم وصولى إلى القاهرة انتقلنا إلى المسكن الجديد . إذاً فقد شغلت بعمل هى أيضاً . وإذاً فهى واجدة فى هذا العمل الجديد بعض السلوى . كان ذلك بعض رجائى ، وبخاصة أن كان لها بنظام المنزل عناية تستغرق عادة الكثير من اهتمامها . لكنها هذه المرة اكتفت بالإشراف دون الاشتراك بالفعل ، وتركت أكثر الأمر للعمال يقومون به بإرشادها . وما لبثت أن انتهت من وضع النظام الذى أرادت أن تتم كل واحدة من الغرف على نسقه حتى عادت يخترمها الهنم وتتناوبها ألوان الألم . وأخذت نفسى يومئذ بأن أقل ما استطعت من الحديث فى شجنتنا المشترك ، وأن

أنصرف بها إلى ضروب مختلفة من التفكير ، لعل أنجو بها ولو بعض الشيء من خيالاتها السوداء المضنية . ولست أدري حتى اليوم أسأت أم أحسنت في اختيار هذا المسلك . فقد فجعت من قبل ذلك ومن بعده في أخى وفى أختى وهما في ريعان الشباب الناضر ، فلم يكن لأمنا حديث شهوراً متوالية بعد هاتين الفاجعتين غير ترديدها سا لمصاحبها في أغوار نفسها وطيات قلبها من عميق الأثر . أفترى تجدد السيدات عن الألم عزاء في تذكر الألم ؟ أم هن يرين في استذكار فلذة الكبد التي ذابت وذهبت ما يرد إليها في نفوسهن وهماً من حياة ؟ أم تراهن يحسبن القدر أبرّ بهن في مستقبل أيامهن حين تدعوه كل أم بما تتقبل عليه نفسها من ذلك الحزن إلى الرثاء لها والإشفاق عليها ؟ لست أدري ! إلا أنني لو اعتقدت أن القدر يقبل بأى ثمن رجاء فذلك ألا يفجع أما في ولدها ، وألا يوجد به عليها إذا كان قد كتب في لوحه أنه متوفيه قبلها . فالدمة التي تسكبها الثاكل ولدها لا تهمل من مآقيا ، بل تنهار بنصيب من حبة عينها ومن سواد نظرها متصعدة إلى هناك زفرات ملتهبة متأججة من ذوب قلبها ومن حشاشة فؤادها . وأية دمة وأية زفرة تذهب بالبصر وتحرق الكبد وتهدم الحياة غير هاته الدموع . ليست دموع أسى ، ولا دموع حزن ، ولا دموع ألم بالغة ما بلغت شدته وقسوته ، بل هى أجزاء من الحياة تسيلها العين ، وهى نفس تساقطها المآقى أنفاساً . وإني لأذكر وأنا أكتب هذه العبارة أمهات ثكلن بعد سن متقدمة وحيداً لمن خلف أبناء ، فلم يجدن في أبنائهن عنه العزاء ، وبقين السنين يذهب بصرهن ثم سمعن ثم أبعاض حياتهن وهن يحملن مع ذلك في كل موسم في محفة حزن سوداء إلى قبر هذا الذاهب تاركاً إياهن يتقلبن على جمر الحشرات واللوعات . أفيردد الإنسان لأولئك البائسات بنكبتن اليائسات من عيشهن ما يحرك شجونهن ؟ أم يصرفهن عن هاته الناحية السوداء لعلهن يجدن في قبس من رحمة الله رجاء وأملاً ؟

الناس فيما يخيّل إلى من هذه الناحية أمزجة . ولعل النساء والرجال في اختلاف المزاج سواء . ولعل للأمل ولانقطاعه في المزاج أثراً بالغاً . فما أزال حتى اليوم أذكر هذا الشيخ الذى كان يذرى الغلال في قريتنا ، وقد فقد وحيداً البالغ ما يزيد على الأربعين ، والذي رزقه بعد عدد من الأبناء ماتوا صغاراً . فلما فجع فيه ولم يبق لديه في عوض عنه رجاء ، تولاّه الذهول وانقلب الجو كله أمام نظره مليئاً بخيال وحيد الذاهب ، حتى كان كلما سأله إنسان عن حاله وقف يرسل « الماويل » يصعد في ألفاظها ما يكتوى به من نيران الهم واليأس ، ويردد فيها ما أصابه من فجعية جعلت حاله ، وجعلت حياته ،

وجعلت الجوا المحيط به ، وجعلت كل بقية له في الحياة فجيرة تطير به على أجنحة من سير الألم تهوى به آخر الأمر إلى خلد الموت المريح يلتق في ابنه ويستعيد وإياه فيه ذاهب سعادته وهناءته .

وأذكر شيخاً آخر أوتي حظاً من العلم غير قليل ، مرض ولده الأكبر مرضاً خيف منه على حياته ، فكان على ضعف بصره يقضى النهار على مقربة من ولده بنتف شعيرات ذقنه وتنهل الدموع الصامته من عينيه ، وظل كذلك حتى جاوز ولده الخطر ثم نجا .
وأذكر غير هؤلاء شيوخاً وشباباً يختلف من العلم ومن الإيمان حظهم ، وهم يذعنون للقدّر ويأبون أن ينهدّ ركن عزمهم ، ويرون الحياة واجباً يؤدي ، وخير ما يعين على أدائه مواصلة الجهد للمزيد منه ؛ فإن أصابهم التوفيق فذاك ، وإلا فضماثرهم وقلوبهم وعقولهم في نجوة من الأسف والأسى . فإذا غلبهم ضعف الإنسان زمناً فليكن واجبهم مغالبة والسمو فوقه والعود للقيام بأداء واجب الحياة .

وأنما من هؤلاء ، فليس يسبغ عقل أن ينهزم الإنسان أمام حادث من حوادث الحياة أياً كان جلاله ، وأن يهن ويضعف . وإذا اضطر الإنسان للوقوف أو للتراجع يوماً ، فليس وقوفه ولا تراجعه هزيمة تلك ركن عزمه ، وإنما هي بعض أعمال الحياة كالتقدم والاندفاع سواء . وكما قد يصيب السوء المتقدم والمندفع وهما في أشد أوقات اعتزازهما بنصرهما وظفرهما ، كذلك قد يفيد الواقف والمراجع من موقفه الخير الوفير . ثم إن الحياة كثيراً ما تهزمننا في ناحية لتصرفنا إلى ناحية غيرها يكون ظفرنا فيها أكبر أثراً ، ويكون ما تؤديه من واجب الحياة فيها أجدى على الحياة وأعود علينا بطمأنينة النفس ، بل بالمجد ، بل بالسعادة . فليس خليفاً إذاً بإنسان أن يبقى كلمة الهزيمة في سجل ما يدور بخاطره من لفظ أو معنى . وليس خليفاً كذلك بإنسان أن يجعل للنصر معنى يقابل هذه الهزيمة التي يضطرب لهولها المتواكلون وضعاف العزم . وإنما النصر الحق المؤزر أن يتغلب الإنسان على ضعف نفسه ، وأن يؤدي في الحياة واجبه بإخلاص للحياة .

هذا الإيمان عندى هو الذى دعانى أن أقل من التحدث إلى زوجي في شجننا المشترك ، وأن أحاول صرفها إلى ضروب من التفكير مختلفة عليها تجد في أحدها ما يعوضها عن سابق حياتها . ونجحت في حملها على القراءة والإكثار منها ، وعاونتها على اختيار كتب من الأدب الفرنسى باللغة من جمال الأسلوب والتصوير ما يستهوى النفس ويأخذ باللب . على أنى رأيته تندفع في قراءتها باحثة عما يحرك شجنها ، حتى إذا عثرت بشيء منه وقفت

عنده وأعادته قراءته ، ثم نقلته إلى كرامة خاصة واستدكرته عن ظهر قلب ، واتخذته وسيلة لإسالة عبراتها في الفترات القصيرة التي تتاح لها الوحدة فيها . ولم تكن القراءة وحدها هي التي تستحيل في نفسها عبء وشجناً ، بل كانت تجد في كل شيء تعالجه صورة الأسى والألم اللذين دستهما الفجعة إلى قلبها وإلى أعصابها وإلى دمها وإلى وجودها كله ، وللذين كسوا الحياة أمامها لوناً صحراويّاً ممحلاً هو لون اليأس القاتل . وضلت بأحلامها في هذه الصحراء المحيطة بها بعد أن أجذبت الواحة الوحيدة النظرة التي اشتملت كل رجائها ، فإذا هذه الأحلام لا تجد رجاء إلا في الموت أو فيما يشبه الموت من انقطاع عن العالم إلى دير من الأديرة أو خلوة من الخلوات . وكنت أحسب هذه الحال يذهب بها الزمان ، وهذه الجراح بأسوها النسيان ، فإذا صاحبها هي التي يذهب الزمان رويداً رويداً بها ، وكأن حياتها كلها جرح برؤه في انطفائه ، وإذا هي تحول شخصاً آخر نظرتة غير نظرتها التي عرفت وإبصاره مضطرب وأعصابه منهدة ، وكل ما فيه نذر مخيفة ، رغم ما كان لها من عتفوان شباب وصحة . ورأى الأطباء أن لا شيء من المرض بها ، ونصحوا جميعاً بضرورة سفرها لتغيير الهواء .

وكنت يومئذ قد بلغ بي الملل ففكرت في هذا السفر ، ولم أجد خيراً من أوروبا مصحاً لزوجي ولـ . فسافرت وإياها في ١٩ من يوليو سنة ١٩٢٦ على الباخرة مونجوليا من بواخر (بننسيولار وأورينتال) قاصدين مارسيليا فباريس ، وكان لي أربعة عشر عاماً لم أرها لما ضربت الحرب ثم تصاريف الزمن بنى وبين أوروبا جميعاً من حجاب . وقضينا في باريس ثلاثة أسابيع ، ثم غادرناها إلى لندن حيث قضينا سبعة عشر يوماً ومنها عدنا إلى باريس لنمر بها مروراً ، فقضينا بها أسبوعين آخرين . ومن باريس سافرنا في ١٢ من سبتمبر قاصدين جبال الألب في السافوا العليا لننتقل منها إلى سويسرا نقطعها من الطرف الفرنسي إلى الطرف الإيطالي ، ثم ننحدر إلى البندقية نزورها ونأخذ بعد ذلك الباخرة حلوان من بواخر (اللويد تريستينو) لترسو بنا في الإسكندرية في ١٨ من أكتوبر يوم تمام الشهر الثالث لمغادرتنا مصر . وبحسبي تقديراً لأثر هذه السياحة أن أذكر كلمة كانت تكررها زوجي : « إن باريس ردت إلى طعم الحياة » ، وأن أذكر كذلك ساعة ارتقينا الباخرة في تريستا لنعود بنا إلى مصر ، وحين نظرت هي إلى الشاطئ فانهملت من عينها دموع اختلطت بماء البحر أسفاً على سياحتنا الجميلة الساحرة التي انقضت وكأنها حلم معسول . وكان لمساfer ظريف ملاحظة أن العبارة المختلطة بماء البحر تعود بصاحبها إلى البحر والسياحة . والحق أنا من

تلك الساعة نذرنا أن نجعل مصيفنا بعيداً عن مصر . وكانت زوجى أشد على تحقيق هذا النذر حرصاً وأشد بضرورة الوفاء به إيماناً . فكانت إذا انتصف الربيع تذكرنى به فتعد العدة ونختار الباخرة ونجهز متاعنا . وكذلك قضينا صيفى سنة ١٩٢٧ وسنة ١٩٢٨ . فى صيف ١٩٢٧ اخترقنا أوروبا من الآستانة إلى بوخارست ، فبودابست ، ففىنا ، فبراج ، فباريس ، ثم عدنا إلى الوطن . وفى صيف ١٩٢٨ ذهبنا من جنوة إلى برن ، فمايانس ، فكلونيا ، فبرلين فمونيخ ، فبادجاستين ، فباريس ، فقيشى ومنها إلى مرسيليا فالإسكندرية . فلما كانت سنة ١٩٢٩ عاودنا الرجاء فى أن نعود بأقاربنا إلى طفل تعوض علينا ابتسامته جمال أوروبا وجمال العالم بأسره .

وإنا اليوم لنشكر القدر كلما ابتسمت طفلتنا وكلما جمعت حياة الوجود كلها إلى جانبنا ، سواء أكنّا وإياها فى غرفة صغيرة أو كبيرة من غرف منزلنا أم كنا فى الهواء الفسيح نسعد بها وهى تسعد هذا الهواء وتسعدنا به وترينا زينة الحياة الدنيا نجد فيها على الحياة عزاء بل بالحياة سعادة ، وتغنيننا بذلك إلى حد عظيم عن التجوال فى فضاء الله كأننا موكلون به نقطعه . وإنى إذ أذكر هذه السنين التى جينا فيها أوروبا من أقصاها إلى أقصاها لأذكر كثيرين ، ولأذكر أضعافهم كثيرات ، كانوا يقضون حياتهم يذرعون العالم من أمريكا إلى أوروبا إلى مصر إلى الصين واليابان ثم لا تجد نفوسهم إلى أى مكان فى العالم مستقراً ؛ لأنها نفوس قلقة هائمة تفتقد شيئاً كان سر حياتها وموضع رجائها ، وكانت عنده تقف وبه تتعلق ، فلما انتزع منها جعلت من العالم كله مسرح قلقها عليه وافتقادها رجاء جديداً فى عوض عنه . فأما الذين يسعدهم الحظ بالعوض فيعودون إلى ما كانوا قبل هيامهم فى بلاد الله فيه . وأما الآخرون فيظلون تضيق بهم فسحة العالم زمناً ثم يجدون فى بعض العالم عن ضيقهم بعض السلوى زمناً آخر حتى تطمئن نفوسهم إلى الرجاء أو إلى اليأس . واليأس - كما قالوا - إحدى الراحيتين .

وقد تركت هذه السنين الثلاث التى حبيت إلينا الارتحال بعيدين عن مكان الذكرى الممضة آثاراً كانت الذكرى تتخلل بعضها فتريده قداسة وجلالاً . والذكرى والرحيل وآثارهما هى التى أملت هذا الكتاب . وزوجى التى كانت الصورة الحية لقداسة الذكرى هى صاحبة الوحي لخير ما فيه ، ولها من أجل ذلك الفضل الأكبر فى تحريره فضلاً جعلنى أطمع فى إهدائه إليها . لكنها رأت أن يكون الإهداء لولدنا الذى تركنا إلى جوار ربه ، والذى لو بقى حياً لكان اليوم يتدرج إلى الشباب ويمتع كهولتنا بما يفيض عنه من روعة

الشباب وروائه . أما اليوم فحسبنا ما عوضنا القدر ، ورجاؤنا أن تكون الحياة أبرّ بنا من بعد وأحنى على قلبين ذاقا ألم الفجيرة والشكل واليأس قرابة أربعة أعوام ، ورأيا من قبل ذلك ومن بعده ما يهبط القلب ذكره . ولنا في عدل القدر أكبر الثقة بأن يحقق هذا الرجاء ، وأن يجعل رحيلنا في المستقبل وما نكتب عنه مضيئاً بنور النعمة يكسوه ثوب من الطمأنينة للحياة ، ويدفع إليه التفكير في مجد الإنسان وسعادته ، بدل السعي لتبريد لوعة القلب والعمل لسلوته .

محمد حسين هيكل